المحاضرة السادسة

فن المقامة

1/مقدمة:

ساهم اتساع رقعة الدولة الإسلامية في الاحتكاك بمختلف الحضارات التي تزخر بها تلك الدول، كالحضارة الفارسية والهندية واليونانية، وشجّع الخلفاء والأمراء عملية النقل والترجمة الأمر الذي ساهم في ظهور فنون جديدة.

كان اهتمام العرب منصبا من قبل على صناعة الشعر، لكنه في العصر العباسي بدأ الاهتمام أكثر بالنثر، خاصة عندما تعلق الأمر بالتعاليم الدينية والروحية والعقلية، فالكثير من المعاني والخواطر لم تكن مألوفة لدى العرب، لذلك نجد نشاطا كثيفا لطبقة المتكلمين والمترجمين لمحاولة ضبط الألفاظ اللغوية حتى لا تفقد اللغة العربية هويتها، فاستحدثوا أساليب جديدة تحفظ بلاغة اللغة وفصاحتها بعيدا عن مختلف الألفاظ المعربة والغريبة.

إن نشاط المتكلمين في المسائل الدينية والعقائدية والفلسفية على النحو الذي نلاحظه عند المعتزلة مثلا قد ساهم بشكل كبير في تطور النثر، إذ انتشر فن المناظرة وحاولت مختلف الأطراف تدعيم مواقفها وذلك بنهلها من مختلف العلوم والحضارات، كما ظهر الوعاظ والقصاصون الذين حاولوا إرشاد الناس إلى ما فيه صلاح لدينهم ودنياهم.

كان لظهور قصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وكتابي البخلاء والحيوان للجاحظ أثر كبير في ظهور فن المقامة، فهذه الكتب وخاصة منها كتابي الجاحظ امتازت بأسلوب قصصي هادف ممزوج بالسخرية والفكاهة عاكسا بصورة واضحة مظاهر حياة المجتمع العباسي.

2/ مفهوم المقامة:

هي مجموعة من القصص القصيرة التي تتناول فكرة أدبية أو فلسفية، ويعتبرها بعض النقاد بمثابة مجموعة أحاديث أدبية ولغوية يرويها راو من الرواة على جماعة من الناس في قالب قصصي الهدف من ورائها التسلية والتشويق. وظهرت أنواع عديدة من المقامات تبعا لمضامينها، حيث نجد المقامة الأدبية اللغوية والمقامة الفقهية والمقامة الأخلاقية وغيرها، إلا أنها تشترك جميعا في اتجاهها اللغوي التعليمي الذي يعتبر هدفا رئيسيا في وضعها.

ظهرت المقامة في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري، ويجمع النقاد على أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من ابتدع هذا الفن، حيث يقول أبي العباس القلقشندي: "واعلم أن من فتح باب المقامات، علامة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذاني، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة وعلو الرتبة في الصنعة". ثم حذا حذوه الحريري لتنتشر فيما بعد في مختلف المناطق .

المقامة لغة:

" المجلس، والجماعة من الناس" يقال يجتمعون في مجلس مقامة. واستخدمت في العصور الإسلامية بمعنى "المجلس الذي يقوم فيه شخص بين يدي الخليفة أو غيره ويتحدث واعظا".

المقامة اصطلاحا:

يعرفها شوقي ضيف من خلال مقامات بديع الزمان الهمذاني على أنها: "نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية، وفيها تدور محاورة بين شخصين سمي أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري" أي أن

شوقي ضيف قد ركّز في المقامة على جانب الحوار دون غيره من الأمور الأخرى، في حين نجد تعريفا ليوسف نور عوض يقول فيه: "إن المقامة تمثّلت في حديث يلقى على جماعة من الناس إما بغرض النصح والإرشاد وإما بغرض الثقافة العامة أو التسول" إذ ركّز الناقد على الأهداف التي تتوقف وراء المقامة.

3/ بديع الزمان الهمذاني:

هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، ولد عام 358هـ وتوفي عام 398هـ، ولد في همذان (بإيران) ودرس فيها واتصل بالوزير والكاتب المشهور **الصاحب بن عباد** وتعلّم على يده فنون الكتابة النثرية، وأصولها، ولم يستقر به المقام في همذان لأنه أحب التجوال بحثا عن أصول كتابية جديدة تختلف عن ما هو متداول بين الناس، فاهتدى إلى فن المقامة في نيسابور (بإيران)، وأبدع في كتابة المقامات فيها حتى يقال إنه أملى ما يزيد عن أربعمائة مقامة على تلاميذه، نحلها جميعا من شخصية أبي الفتح الإسكندري وقصّرها على الكُدية(الحيلة لجلب المال) والاستجداء الذكي.

4/ شرح مقامة بديع الزمان الهمذاني المضيرية:

تناولت الكثير من الأحداث يمكن إيجاز مضمونها فيما يلي: أبو الفتح الإسكندري هو بطل الكدية، والاحتيال على الناس، يقدم له لون من ألوان الطعام، فيرفض تناوله، بل ويعرب عن إعراضه عنه بسيل من السباب، الأمر الذي أثار غرابة المدعوين ودهشتهم، فيسألوا أبا الفتح عن السر ليصبح المدعوون والقراء جميعا في واجهة واحدة يطلون منها على حكاية أبي الفتح مع المضيرة.

5/ الجو القصصي في المقامة:

تعتمد المقامة في بدايتها على الإثارة والتشويق، حين يشاهد أبا الفتح الإسكندري في رهط المدعوين على الطعام، ثم تبدأ الأحداث تأخذ منحى آخر، لعقدة النص وهو جانب يحمل بين طياته عنصرا قصصيا يثير القارئ ويشوقه ليعرف تتمة المقامة، وما سيحدث مع أبي الفتح الإسكندري وموقفه بين التجار بعد رفضه الأكل.

تحدد المقامة مكانها كالقصة تماما، إذ أنها بدأت في البصرة، حيث التقى هؤلاء الأفراد على طعام المضيرة، كما تحدّد أيضا شخصياتها التي حرّكت الجو القصصي في المقامة، وهم المدعوون، وأبو الفتح الإسكندري والتاجر.

6/ عناصر المقامة:

أ/ الشخصيات:

01 التاجر البغدادي:

- ريفي حديث الثراء
- ثرثار مستطرد في حديثه
- استغلالي فهو لا ينتج بل يسطو على ما لدى الآخرين، ويستغلهم في أوقات ضيقهم.
- ماكر خداع ويبدو ذلك في استغلاله لجاره المترف المسرف ومن ثم حصوله على البيت بعد ادعائه الحرص على مساعدته.

بارع في تجميل الأشياء ويظهر ذلك في كثير من عباراته الطويلة الوجدانية التي يصف بها ممتلكاته.

02 أبو الفتح الإسكندري:

- مكد (يحترف الكدية)
- طفيلي، وصحبته للتاجر البغدادي شاهد على ذلك.
- فصيح بليغ بارع الحديث.
- مضلل وتمنعه الظاهري إزاء إصرار التاجر البغدادي يشهد على ذلك.
- قادر على التأثير والإقناع، وهو ما يظهر في نجاحه في إبعاد الحاضرين عن المضيرة.

7/ شكل المقامة:

تنتظم المقامة المضيرية حول حكايتين:

- حكاية الإطار، ومسرح أحداثها في مدينة البصرة وراويتها عيسى بن هشام
- الحكاية المغلفة (الداخلية) ومسرح أحداثها في بغداد، وراويتها أبو الفتح الإسكندري.

اعتمد الكاتب في حبك هذه القصة على مقومات ثلاثة:

- **الأحداث**: وتمتاز بالتشويق منذ البداية، حيث التمجيد المغالي للمضيرة مقابل رفض البطل لها، مما شوّق القارئ للمتابعة.
- **الوصف**: وهو وصف وجداني تختلط به مشاعر الواصف.
- **الحوار**: وهو ملازم للأحداث، وبدا في ظاهره حوارا ثنائيا، إلا أنه كان ضمنيا شبيها بالحوار الذاتي، إذ لم يكد التاجر يدع أبا الفتح يتكلم.

جاء الحوار في أسلوب بديع الزمان الهمذاني محاكيا للحوار الواقعي بين شخصيتين، إحداهما ثرثارة لا تكف عن طرح الكلام، والأخرى صامتة تتلقى الحديث بمقتضاه وتجري مجراه، وهذا ما كان عليه أسلوب البديع في أغلب المقامات التي كتبها.

8/ لغة المقامة:

اختار فيها بديع الزمان الهمذاني أن يزاوج بين تكلّف الألفاظ وتسخيرها لخدمة المعنى، وتوجيهها لرسم صورة نفسية دقيقة لإحدى شخصيات مقاماته وهي شخصية التاجر. ومن سمات لغة المقامة:

إبراز اللغة المعنى وتفصيله وتوضيحه، وذلك من خلال ملاحقة الحدث وتصويره بما يشتمل عليه من مفاجئات وتشويق، وما يقتضيه من ملاحقة ومتابعة.

استخدام أسلوب السجع المبني على الجانب الموسيقى، فهو قائم على إيقاع الوزن والقافية، ومن الأمثلة عليه: (يا غلام الخوان، فقد طال الزمان، والقصاع فقد طال المصاع والطعام وقد كثر الكلام فأتى الغلام الخوان وقلبه التاجر على المكان ونقره بالبنيان وعجمه بالأسنان وقال: عمر الله بغداد فما أجود متاعها وأظرف صناعها).

استخدام أساليب متعددة في بناء الجملة، فزاوج بين جمل النداء والجملة الشرطية، والجمل القائمة على التمني: (لو رأيت الدخان يغبر في ذلك الوجه الجميل، لرأيت منظرا تحار فيها العيون).

9/الخصائص الفنية للمقامة:

تقوم المقامات على أسلوب السرد الحكائي، حيث تعتمد على راو، وبطل رئيسي وشخصيات ثانوية، وأغلب شخصياتها خيالية، بينما تختلف المواضيع المتناولة فيها.

تبدأ المقامات عادة بحديث الراوي ، حيث تفتتح بعبارة : حدّثنا فلان فقال ...، تم يأتي سرد حكاية الشخصية الرئيسية التي تمتاز عادة بالذكاء والنضج الأدبي والحنكة والتجربة الحياتية، وتملك لسانا يفتن به جمهور السامعين، إلى جانب خاصية المكر التي لا تكتشف إلا مع نهاية كل مقامة. ويتخلل الحكي أوصافا للمكان والزمان، وملامح الشخصيات وصورها وأشكالها.

تطورت المقامة عبر العصور ، فتغيرت فيها الكثير من الخصائص التي كانت ثابتة في مقامات الهمذاني والحريري، فمقامات الزمخشري مثلا ليست فيها شخصيات رئيسية وثانوية، إلى جانب كونها تتصف بالبلاغة وسرعة الخاطر والحيلة، فمقاماته عبارة عن نصائح ومواعظ تميّزت بجمال الأسلوب الذي لا تكلّف فيه، ويغلب عليها طابع الجدّ لا الهزل، فعنصر الفكاهة يظهر أقل مما كان مألوفا عنه من قبل نتيجة الاهتمام بالوعظ والنصح الديني الداعي لإصلاح النفس والزهد في الحياة والتوجه لعمل الخير، فعرفت بالمقامات الصوفية.

10/تأثير مقامات الهمداني على الأدب العربي:

يزخر النتاج الأدبي القديم بفن المقامات ولم يقتصر تواجده لدى أدباء المشرق فحسب بل وصل هذا الفن إلى أدباء المغرب والأندلس الذين تأثروا به وأبدعوا فيه بطريقة مغايرة عن تلك التي انتشرت فيه في المشرق، إذ فقدت سمة الحيلة التي كانت عنصرا أساسيا في بنيتها كما فقدت الشخصيتين الخياليتين وأصبحت على لسان صاحبها حيث تحولت إلى رسائل تصف مواقف ورحلات الشخص تقدم غالبا بين يدي أمير يرجوه أو أمل يحب تحقيقه، فهي بذلك أصبحت أشبه بالمقالات الوصفية أو قصص المشاهدة التي تقوم على الحكاية، فكان للأدباء مقامة أو اثنتين أو ثلاث يتناولون فيها تلك المواضيع.

لكن هناك من أدباء الأندلس من حاول اتباع القيود الصارمة التي وضعها الحريري على نحو توظيف الشخصيات الخيالية إلى جانب احترام عدد المقامات الذي يجب أن يكتب وهو 50 مقامة، فأبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي الملقب بالسرقسطي قد ألف مقامات بالعدد نفسه، واتخذ شخصيتي المنذر بن حُمام والسائب بن تمام راويان لمقاماته، حيث أن هذا الأخير هو المكلف بالمغامرات التي يرويها للمنذر. وحاول السرقسطي تصوير الجوانب الفنية والثقافية في بيئته الأندلسية معبرا في الوقت نفسه عن آرائه في النقد والأدب، فسميت مقاماته باللزومية حيث اعتمدت على الطريقة الفنية لمقامات الهمذاني والحريري حيث نجد الراوي والشخصية الرئيسية والسرد الحكائي والصنعة البديعية.